قالت العرب

المصرى مد إيديه / من غرقته ينشله / احنا اللى هانشكله / سنة وثانية
ويوم / أسبوع .. دقيقة .. شهر / احنا اللى رح نظبطه / على ساقية جوه
النهر / كان الزمن ماشي / ولاحد حاسس بيه / ولا هو دارى بحد / لحد
ما جه هنا / وبقى سنين تتعد

المشهد

العدد 356 – السنة الرابعة عشرة - الأربعاء 15 يوليو 2026 م - 1 صفر 1448 هـ

الطرف الأصعب فى التعامل معه خلال محادثات إيران ليس إيران

أطراف ثالثة تتحمل مخاطر لا يستطيع الطرفان الرئيسيان تحملها فهى تقدم ضمانات لا يستطيع الراعى تقديمها وتنقل إلى طهران ما لا يمكن لواشنطن قوله علناً!

فى وقت ما من ربيع هذا العام، وفى ذروة أكثر مفاوضات الشرق الأوسط حساسية التى تجريها واشنطن منذ جيل، أقدم مسؤولون أميركيون على خطوة تكاد لا تجد لها سابقة فى تاريخ العلاقات الأميركية الإسرائيلية، فقد طلبوا سرّاً من حكومات أخرى تحذير إيران من مخطط إسرائيلى محتمل لاغتيال كبيرى مفاوضى طهران.

كان هذا هو جوهر تقرير نشرته صحيفة "نيويورك تايمز" فى وقت سابق من هذا الشهر، وقد أكد مسؤولان أميركيان لشبكة سى إن إن توجيه تلك التحذيرات، بينما رفضت إسرائيل التقرير ووصفته بأنه مختلق.

كانت واشنطن تخشى أن تكون إسرائيل تخطط لاغتيال وزير الخارجية الإيرانى عباس عراقجي، ورئيس مجلس الشورى الإسلامى محمد باقر قاليباف، وهما الرجلان اللذان يقودان الجانب الإيرانى فى المحادثات، ولان الولايات المتحدة لم تتمكن من إصدار أمر لحليفتها بالتراجع، حذرت واشنطن خصمها من مخططات صديقتها.

وسواء كان المخطط موجوداً بالفعل أم لا، فإن الحقيقة الحاسمة تكمن فى هذا التصرف نفسه: فقد رأت واشنطن أن الخطر حقيقى بما يكفى للتحرك، فتحركت، وفى هذه المرحلة، لا تتمثل أصعب مهمة تواجهها واشنطن فى إبقاء إيران على طاولة المفاوضات فحسب، بل فى منع أقرب حلفائها من إزالة الطاولة بالكامل، فالطرف الأصعب فى التعامل ليس ذلك الذى أمضت واشنطن عقدين فى اعتباره عدواً لا يمكن التفاهم معه، بل الطرف الذى تزوده بالسلاح.

نمط متكرر لا مجرد افتراض

تقول صحيفة "نيويورك تايمز" ان ضربات إسرائيلية فى وقت سابق من الحرب اسفرت عن مقتل على لاريجاني، الذى كان يشغل آنذاك منصب أمين المجلس الأعلى للأمن القومى الإيرانى، وكمال خرازي، وزير الخارجية السابق ومستشار المرشد الأعلى للسياسة الخارجية.

وكان الرجلان من الشخصيات البراغماتية المشاركة فى المحادثات، ومن بين المسؤولين الذين كانت واشنطن تأمل فى التفاوض معهم، وتجرى قناة التفاوض اليوم عبر عراقجى وقاليباف، ويرجع ذلك جزئيا إلى أن الرجال الذين كان من الممكن أن يقودوها بدلاً منهما قد قتلوا.

ويُقال إن قاليباف نفسه نجا من محاولتى اغتيال إسرائيليتين، إحداهما خلال حرب الأيام الاثنى عشر فى يونيو ٢٠٢٥، والأخرى هذا العام، عندما قصفت إسرائيل ملجأً كان يعتقد فيه كبار المسؤولين اجتماعاً.

تهديد مجتبى

تطلق أدبيات تسوية النزاعات وصف "المعرقلين" على الجهات التى تنظر إلى عملية السلام باعتبارها تهديداً لها، فتعمل على إفشالها، وقد لاحظ عالم السياسة ستيفن ستيدمان، فى دراسته التأسيسية، أن المعرقلين الموجودين خارج العملية هم الأخطر، لأنهم لا يتحملون أى كلفة عند انهيار المحادثات، بل يحققون ما يريدونه عندما يحدث ذلك، كما تحدد هذه الأدبيات توقيت تحركهم بدقة: يهاجم المعرقلون عندما تقترب العملية من تحقيق إنجاز حقيقي، أو عندما تتيح لحظة رمزية مشحونة تحويل حادثة ما إلى قطيعة كاملة.

وبهذا المعيار، وفّرت فترة الجنازة ظروفاً تكاد تكون نموذجية لعرقلة العملية، فقد كان المسار الأميركى الإيرانى قد توصل للتو إلى اتفاق مؤقت لوقف الحرب وإعادة فتح مضيق هرمز، وفى الوقت نفسه، كانت إيران تشهد أياما من الحداد الشعبى على المرشد الأعلى الراحل آية الله على خامنئي، الذى قُتل فى اليوم الأول من الحرب، بينما تزامنت مراسم التشييع مع عيد الاستقلال الأميركي.

وكان وزير الدفاع الإسرائيلى يسرائيل كاتس قد أعلن أن المرشد الأعلى الإيرانى الجديد، مجتبى خامنئي، بات هدفاً للاغتيال، فى حين توعد عباس عراقجى برد قوي، وطالب واشنطن بكبح حليفتها، وبلغ الخطر حداً جعل مجتبى خامنئى يتغيب عن مراسم التشييع العلنية لوالده.

وهكذا اصطدمت عملية دبلوماسية تقترب من تحقيق اختراق بلحظة بلغت فيها درجة الانكشاف السياسى والرمزى ذروتها، وهو تحديداً النوع من الفرص الذى تحذر منه أدبيات المعرقلين.

لقد وُضعت جميع الأدوات التى تقترحها هذه الأدبيات للتعامل مع المعرقلين، بما فيها تقديم الحوافز، وإدماجهم فى العملية، واستخدام الإكراه، للتعامل مع الخصوم، لكن أياً منها لا يناسب الوضع المختلف، والذى لم يحظ بدراسة كافية، الذى تواجهه واشنطن اليوم، حيث يكون المعرقل المشتبه به هو الحليف الموجود فى صلب استراتيجيتها الإقليمية، فإكراه إسرائيل أمر لا يمكن تصوره سياسياً فى واشنطن، أما تحفيزها فهو أمر زائد عن الحاجة، لأنها تحصل بالفعل على الحزمة الكاملة من الدعم، ومحاولة إدماجها فى عملية يرى مسؤولوها أنها كارثة استراتيجية، لأنها تقضى على احتمال تغيير النظام وتفرج عن أموال لطهران، تنطوى على تناقض فى ذاتها.

وتوضح التقارير الإسرائيلية أسباب ذلك، فقد وثّق تحقيق نشره حديثاً موقع واينت الإسرائيلى كيف مارس مكتب رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو ضغوطاً على مؤسسات الاستخبارات الإسرائيلية لتبنى تقديرات مبالغ فيها بشأن إنجازات الحرب، رغم اعتراضات ضباط وعلماء، ووصف التحقيق الاتفاق بأنه سيئ جداً بالنسبة لإسرائيل.

وإذا كانت الإنجازات المعلنة للحرب قد تجاوزت إنجازاتها الفعلية، فإن التوصل إلى اتفاق دائم لا يكون مجرد نتيجة غير مرغوبة لإسرائيل، بل يصبح خطراً على الرواية التى تروجها. فكل شهر تستمر فيه العملية يمثل تدقيقاً جديداً فى الانتصار الذى قيل للإسرائيليين إنهم حققوه.

معرقلون من داخل إيران

وليست إسرائيل المعرقل الوحيد الذى يضغط على العملية، إذ أفرز النظام الإيرانى معرقلين من داخله أيضاً، فبعد أيام من توقيع مذكرة التفاهم، استمرت الضربات على أهداف خليجية، وهدد الحرس الثورى الإسلامى الإيرانى بالانسحاب من المحادثات، فى الوقت الذى دافعت فيه الحكومة التى وقعت الاتفاق عن مسار التفاوض.

وقد أظهر باحثون فى عمليات السلام بالمنطقة، ومن أبرزهم عالمة السياسة ويندى بيرلمان، أن العرقلة كثيراً ما تكون من عمل فصائل تتنافس على قيادة معسكرها نفسه.

وهكذا تتعرض العملية للضغط من اتجاهين: معرقل حليف من خارج أحد الطرفين الرئيسيين، ومعرقلون فصائليون من داخل الطرف الآخر، وأى تعريف عملى للاستقرار يجب أن يشمل التعامل مع الحالتين معاً.

لنظرية التحالفات تسمية تصف المأزق الذى تواجهه واشنطن، فمنذ العمل الكلاسيكى لعالم السياسة غلين سنايدر حول «المعضلة الأمنية للتحالفات»، استخدم الباحثون مصطلح «الاستدراج» لوصف الحالة التى يجرّ فيها طرف تابع راعيه إلى نتائج لا يريدها.

وفى النموذج التقليدي، يجرّك الحليف إلى حرب، أما الملف الإيراني، فيقدم الحالة المعكوسة: حليف يعمل على جرّ راعيه إلى الانسحاب من عملية سلام، ويشرح إطار سنايدر سبب ذلك أيضاً: فالحليف الذى يتمتع بنفوذ كاف داخل السياسة الداخلية للدولة الراعية بما يمكّنه من مقاومة الضغوط، ويواجه راعياً لا يستطيع تحمل خسارته أو السماح له بالانشقاق، يمتلك قوة تفاوضية تفوق بكثير حجم اعتماده الفعلى على ذلك الراعي.

وعندما يكون المعرقل حليفاً، يتحول التعامل مع المعرقلين إلى إدارة للتحالف، وهى عملية لا تسير على نحو جيد، فبعد أن هاجم وزراء إسرائيليون مذكرة التفاهم، قال نائب الرئيس الأميركى جيه دى فانس للصحفيين إنه لو كان عضواً فى الحكومة الإسرائيلية، "فلربما لم أهاجم الحليف القوى الوحيد" المتبقى لها.

سلم متصاعد

ويبدو تسلسل الأحداث أشبه بسُلّم متصاعد: طلب خاص من إسرائيل الامتناع عن التحرك، ثم تحذيرات نُقلت عبر وسطاء، ثم توبيخ علنى من نائب الرئيس، وأخيراً تسريب الأمر إلى الصحافة، وكانت كل درجة أكثر علنية من سابقتها، ما يشير إلى أن واشنطن لم تعتبر الخطوة السابقة كافية.

ومن منظور سنايدر، لا يعكس هذا التصعيد تخبطاً تكتيكياً، بل نتيجة حتمية تفرضها بنية العلاقة؛ إذ لا يوجد مسار آخر أمام دولة راعية لا تستطيع إجبار حليفتها ولا التخلى عنها، وقد تُصعد واشنطن الدرجة التالية عبر لقاء مباشر، بعدما اتفق الرئيس الأميركى دونالد ترامب ونتنياهو، خلال اتصال جرى فى الثالث من يوليو ، على الاجتماع قريباً فى الولايات المتحدة.

وعندما تصل قوة عظمى إلى هذا الوضع، فإنها تقر ضمناً بأنها لا تسيطر على شريكها، وهذا الإقرار هو الحقيقة المركزية فى هذه المفاوضات، كما يشير إلى الحاجة إلى أداة رابعة لم تُدرجها بعد أدبيات التعامل مع المعرقلين، وهى تحقيق الاستقرار عبر أطراف ثالثة، من خلال حماية العملية نفسها إلى أن تمر لحظة الخطر.

قس هذه المرحلة بما لا يحدث

أقر مسؤولون أميركيون بأنه بمجرد بدء المفاوضات الجادة، انقلبت حسابات استهداف عباس عراقجى ومحمد باقر قاليباف؛ إذ إن قتلهما كان سيعنى قتل المحادثات نفسها، وقد عبّر ترامب عن هذه الحسابات بوضوح، قائلاً إن قادة إيران كانوا مجتمعين فى مكان واحد، لكن ضربهم كان سيتركه من دون "أى شخص يمكن التفاوض معه".

رفع حدة الخطاب العدائي

تُعد الفترات الفاصلة بين جولات المحادثات أكثر اللحظات التى تموت فيها عمليات السلام، فطاولة التفاوض تفرض قدراً من الانضباط، بينما لا تفعل الأيام التى تفصل بين الجولات ذلك، وقد رفعت مراسم الجنازة وعيد الرابع من يوليو/تموز حدة الخطاب الداخلى إلى أقصى مستوياتها، فى اللحظة نفسها التى كانت فيها قناة التفاوض أكثر عرضة للخطر.

فى مثل هذه المرحلة، لا يكون إحراز التقدم هو الهدف الصحيح، بل تحقيق الاستقرار: أى تجميد الوضع، بصورة ضمنية وعبر وسطاء عند الضرورة، إلى أن تمر اللحظة الرمزية الحساسة، وقد عكس التوقف الذى استمر أسبوعاً فى المحادثات، ووافق عليه الطرفان بسبب مراسم الجنازة، هذا المنطق، لكنه لم ينجح فى تهدئة الصراع الأوسع، إذ استؤنفت الضربات الأميركية فى السابع من يوليو ، قبل انتهاء مراسم التشييع، وردت إيران بهجمات على منشآت أميركية فى المنطقة.

أما الأداة الرابعة فليست مجرد افتراض نظري، إذ يكشف تقرير نيويورك تايمز أنها استُخدمت بالفعل، فعندما خشيت إيران تعرض وفدها لهجوم أثناء توجهه إلى محادثات فى إسلام آباد، طلبت ضمانات عبر وسطاء باكستانيين وقطريين بعدم استهداف مفاوضيها، ورافقت مقاتلات باكستانية طائرات الوفد فى رحلتى الذهاب والعودة، وعندما ظهر تهديد رغم ذلك، وأُجبرت طائرة الوفد على الهبوط اضطرارياً، عاد أعضاء الفريق إلى بلادهم فى رحلة برية استغرقت ثمانى ساعات، ثم واصلوا المفاوضات لاحقاً فى الدوحة وسويسرا.

وهكذا تتحمل أطراف ثالثة مخاطر لا يستطيع الطرفان الرئيسيان تحملها؛ فهى تقدم ضمانات لا يستطيع الراعى تقديمها، وتنقل إلى طهران ما لا يمكن لواشنطن قوله علناً، ونادراً ما تنهار الاتفاقات على طاولة المفاوضات نفسها، بل تموت غالباً بين الجولات، عندما تتزامن لحظة مشحونة مع طرف يريد إفشالها، من دون وجود آلية قادرة على امتصاص الصدمة، وفى نهاية المطاف، سيُحكم على مذكرة التفاهم وفق ما تحققه فى ملفات مضيق هرمز وأجهزة الطرد المركزى وتخفيف العقوبات، أما فى الوقت الراهن، فالإنجاز أضيق نطاقاً: فعلى الرغم من تجدد الضربات الأميركية والإيرانية، لم تقع العملية الإسرائيلية التى كان يُخشى منها، وبقى المفاوضون على قيد الحياة، وظلت القناة الدبلوماسية مفتوحة.

وكان ذلك نجاحاً محدوداً، تحقق بصعوبة، لا عبر إدارة عدو، بل عبر إدارة صديق.

نايف النابت
زميل غير مقيم فى مجلس الشرق الأوسط للشؤون العالمية فى الدوحة

الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني: وفاة الرجل الذي رفض الاختباء

جاءت شكّل نبأ وفاة الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، أمير قطر السابق، عن عمر ناهز الرابعة والسبعين عامًا، نهاية حقبة ارتبطت بأكبر تحول في تاريخ الدولة القطرية الحديثة، فقد كان الشخصية الأكثر تأثيرًا في مسيرة قطر دون منازع، وأحد أبرز القادة العرب في العصر الحديث، وهو إنجاز استثنائي لرجل حكم دولة صغيرة لم يكن عدد سكانها يتجاوز بضع مئات الآلاف.

لقد واجه كل حاكم لقطر المعضلة نفسها والمتمثلة في السؤال التالي: كيف يمكن تأمين شبه جزيرة صغيرة غنية بالنفط والغاز، لكنها ذات تعداد سكاني ضئيل مقارنة بجيرانها، وتقع بين قوتين إقليميتين هما إيران والسعودية؟

كان جواب والده، الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، الذي حكم بين عامي ١٩٧٢ و١٩٩٥، هو الانكفاء؛ إذ اعتمد على المظلة السعودية، وأنفق بحذر، وأبقى قطر بعيدة عن الأضواء الدولية.

أما الشيخ حمد، فاختار المسار المعاكس تمامًا، وكان يدافع عنه قبل سنوات من توليه الحكم رسميًا، فمنذ تعيينه وليًا للعهد ووزيرًا للدفاع عام ١٩٧٧، أخذ نفوذه يتعاظم خلال الثمانينيات، حتى أصبح بحلول عام ١٩٨٨ الحاكم الفعلي للبلاد، وأطاح بوالده في انقلاب أبيض في يونيو ١٩٩٥، ومنذ ذلك الحين، تبنى استراتيجية واضحة قوامها أن الغموض يمثل نقطة ضعف، وأن الدولة الصغيرة التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها بالقوة العسكرية يجب أن تجعل نفسها عصية على التجاهل.

وهكذا، سعت قطر إلى أن تصبح دولة معروفة عالميًا؛ وسيطًا دبلوماسيًا، ومنصة إعلامية، ومستضيفًا لأكبر الأحداث الرياضية، ومستثمرًا دوليًا، وكان الشيخ حمد يعتقد أن هذا الحضور العالمي سيصبح في حد ذاته وسيلة لحماية البلاد، أو ما يمكن وصفه بـ"الردع عبر الأهمية".

المال والحماية

كانت السلطات القطرية تعلم منذ عام ١٩٧١ أن البلاد تقع فوق أكبر حقل غاز طبيعي في العالم، وهو الحقل المشترك مع إيران.

أطلقت قطر على الحقل اسم حقل الشمال، بينما سمّت إيران الجزء الواقع ضمن مياهها بارس الجنوبي، لكن هذا الحقل لم يكن يحتوي على النفط، ولذلك لم يحظ باهتمام كبير طوال عقدين.

أدرك الشيخ حمد الإمكانات الهائلة لهذا المورد، وأسند مهمة تحويل قطر إلى قوة عالمية في الغاز الطبيعي المسال إلى صديق طفولته عبد الله بن حمد العطية، الذي تولى وزارة الطاقة عام ١٩٩٢.

وبعد حرب تحرير الكويت، نجح العطية في ترتيب قروض من تكتلات يابانية كبرى، وإقامة شراكات طويلة الأمد مع شركات الطاقة الغربية العملاقة، مع استعداد لتحمل المخاطر لم تضاهه أي دولة خليجية أخرى آنذاك.

وصدّرت قطر في ديسمبر ١٩٩٦، أول شحنة من الغاز الطبيعي المسال من مدينة رأس لفان، وأصبحت بحلول عام ٢٠٠٦، أكبر مصدر للغاز الطبيعي المسال في العالم.

ارتفع الناتج المحلي الإجمالي لقطر خلال ثمانية عشر عامًا من حكم الشيخ حمد، بأكثر من أربعة وعشرين ضعفًا، في تحول اقتصادي غير مسبوق غيّر مكانة الدولة على الساحة الدولية.

موّلت هذه العائدات إنشاء جهاز قطر للاستثمار عام ٢٠٠٥، والذي أصبح لاحقًا أحد أبرز صناديق الثروة السيادية في المنطقة، ولم يكن الهدف من الصندوق مجرد ادخار الفوائض المالية، بل كان أداة استراتيجية لتعزيز نفوذ قطر على الساحة الدولية.

فقد استثمر الصندوق في مؤسسات وشركات عالمية كبرى، من بينها كريدي سويس، وباركليز، وبورشه، وفولكسفاغن، ونادي باريس سان جيرمان الفرنسي، ومتجر هارودز البريطاني.

ولم تكن هذه الاستثمارات تهدف فقط إلى تحقيق عوائد مالية، بل أيضًا إلى ترسيخ حضور قطر في أذهان المصرفيين والصناعيين وصناع القرار حول العالم، ممن لم يكونوا يعرفون الدوحة أو يحددون موقعها على الخريطة قبل سنوات قليلة.

وهكذا تجسدت فلسفة الشيخ حمد في أن الاستثمار يمكن أن يحقق عائدًا سياسيًا يتمثل في تعزيز المكانة والأهمية الدولية.

وفي الوقت نفسه، سعى الشيخ حمد إلى توفير ضمانات أمنية لبلاده، فقد شكّل الغزو العراقي للكويت عام ١٩٩٠ درسًا بالغ الأهمية لقادة الخليج، إذ أثبت أن خطر الغزو العسكري ليس مجرد احتمال نظري، بل واقع يجب الاستعداد له.

ولهذا، وقّعت قطر، شأنها شأن عدد من دول الخليج، اتفاقية للتعاون الدفاعي مع الولايات المتحدة عام ١٩٩٢، لكنها ذهبت إلى أبعد من ذلك، إذ أنفقت مليار دولار من أموالها لبناء قاعدة جوية تضم أحد أطول المدارج في الشرق الأوسط، وهو مشروع يفوق بكثير الاحتياجات الفعلية لسلاح الجو القطري، وكان الهدف منه تشجيع انخراط عسكري أمريكي أعمق في البلاد.

وكان المنطق واضحًا وبسيطًا: ابن القاعدة، وسيأتي الأمريكيون. وقد تحقق ذلك بالفعل. فمنذ مطلع الألفية الجديدة، واصلت الولايات المتحدة توسيع قاعدة العديد الجوية، ونقلت إليها عام ٢٠٠٣ مركز العمليات الجوية المشتركة من السعودية، لتتحول القاعدة إلى إحدى الركائز الأساسية في البنية العسكرية العالمية للولايات المتحدة.

مكبر الصوت

على الصعيد الداخلي، أقدم الشيخ حمد على خطوات غير مسبوقة في المنطقة، فقد ألغى وزارة الإعلام بالكامل، وكلّف بإعداد دستور دائم للبلاد، وأطلق أول انتخابات بلدية شاركت فيها النساء ناخبات ومرشحات.

كما منح زوجته الثانية، الشيخة موزا بنت ناصر المسند، الدعم المالي والصلاحيات اللازمة لإعادة صياغة منظومة التعليم والسياسات الاجتماعية في قطر من خلال مؤسسة قطر والمدينة التعليمية، إلى جانب شبكة واسعة من المبادرات الخيرية الدولية، وبذلك أصبحت الشيخة موزا الشخصية النسائية الأبرز، وربما الأكثر تأثيرًا، في التاريخ العربي المعاصر.

وعلى الصعيد الخارجي، وبعد أن نصّ الدستور على دور الوساطة، جعل الشيخ حمد من الدوحة مقرًا للمفاوضات التي لم تكن أي عاصمة أخرى مستعدة لاستضافتها، بما في ذلك محادثات دارفور، ولبنان، وحركتي فتح وحماس، ولاحقًا المفاوضات بين حركة طالبان والولايات المتحدة.

وكانت جميع هذه السياسات تخدم هدفًا واحدًا: جعل قطر أقرب ما تكون إلى دولة محايدة، تحتفظ بعلاقات مع الجميع، وتصبح طرفًا لا يمكن الاستغناء عنه في أكبر عدد ممكن من القضايا.

ولهذا، حافظ الشيخ حمد على علاقات وثيقة مع إيران، التي تتقاسم مع قطر أكبر حقل للغاز في العالم، بل ودرس مشروعًا لنقل المياه العذبة من نهر كارون الإيراني إلى الدوحة عبر الخليج، ولم يرَ المشروع النور، لكنه يعكس مدى استعداده للانخراط الإيجابي مع القوة الإقليمية المنافسة.

وفي عام ١٩٩٦، وفي خطوة أثارت استياء شركائه العرب، سمح لإسرائيل بافتتاح مكتب تجاري في الدوحة، وهو ما عُدّ بمنزلة سفارة فعلية قبل أن يُغلق لاحقًا، وكانت الرسالة واضحة: قطر هي التي تقرر بنفسها مع من تقيم العلاقات.

أما أبرز أدوات هذه السياسة فكانت قناة الجزيرة، فقد انطلقت عام ١٩٩٦، واعتمدت إلى حد كبير على صحفيين انتقلوا إليها بعد انهيار المشروع التلفزيوني العربي لهيئة الإذاعة البريطانية (BBC)، وقدمت نموذجًا غير مسبوق في الإعلام العربي، إذ غطّت الاحتجاجات، واستضافت أصوات المعارضة، وانتقدت أداء الحكومات العربية.

وبفضل سبقها في هذا المجال، رسخت الجزيرة مكانتها بسرعة باعتبارها واحدة من أكثر المؤسسات الإعلامية تأثيرًا في العالم العربي، لكنها في الوقت نفسه أصبحت مصدرًا دائمًا للتوتر مع الحكومات العربية، كما أثارت استياء الولايات المتحدة، بعدما بثّت بيانات لتنظيم القاعدة في وقت كانت فيه قطر تستضيف أكبر قاعدة عسكرية أمريكية متقدمة في المنطقة.

ومع مرور الوقت، أصبح تقديم شكاوى من سفراء الدول العربية في الدوحة إلى الديوان الأميري بشأن تغطية الجزيرة لبلدانهم أمرًا يكاد يكون معتادًا.

قطر في عهد الشيخ تميم

ورث الشيخ تميم بن حمد آل ثاني الاستراتيجية التي وضعها والده، وحافظ عليها إلى حد كبير بدلاً من إعادة صياغتها، فقد تمكن من تجاوز أزمة المقاطعة الخليجية حتى انتهت باتفاق العلا في يناير/كانون الثاني ٢٠٢١، من دون أن تضطر قطر إلى تنفيذ أي من المطالب الثلاثة عشر التي كانت الدول المقاطعة قد طرحتها.

واستضافت قطر عام ٢٠٢٢، نهائيات كأس العالم، وهو المشروع الذي فازت بحق تنظيمه قبل عقد من الزمن في عهد الشيخ حمد، وكان التجسيد الأوضح لفكرته القائلة إن الظهور على الساحة الدولية يمثل وسيلة للحماية.

وفي العام نفسه، صنفت الولايات المتحدة قطر حليفًا رئيسيًا من خارج حلف الناتو، تقديرًا لدورها في عمليات إجلاء كابول، ومنذ أكتوبر ٢٠٢٣، أصبحت الدوحة القناة الرئيسية التي لا غنى عنها للتواصل مع حركة حماس خلال حرب غزة.

لكن هذا الدور لم يخلُ من الثمن، ففي التاسع من سبتمبر ٢٠٢٥، قصفت إسرائيل مفاوضين من حماس في الدوحة، ما أسفر عن مقتل ضابط أمن قطري، ثم جاء التحول الأكبر في ٢٨ فبراير ٢٠٢٦، عندما شنت الولايات المتحدة وإسرائيل هجومًا على إيران. وكانت قطر من أكثر دول المنطقة تعرضًا لتداعيات الرد الإيراني، إذ اهتزت للمرة الأولى الركائز الأساسية التي قامت عليها سياسة الشيخ حمد الخارجية: الشراكة مع الولايات المتحدة، والأمن عبر الحضور الدولي، والاستفادة من الثروة الغازية بوصفها مصدرًا للقوة والنفوذ.

ففي اليوم الأول للحرب، تعرضت قاعدة العديد الجوية للقصف، وأصيب مركز العمليات الجوية المشتركة، الذي يمثل القلب النابض للعمليات الجوية الأمريكية في الشرق الأوسط، بأضرار جسيمة.

وفي مارس، استهدفت صواريخ إيرانية مجمع رأس لفان للغاز، متسببة في أضرار واسعة، كما أصابت منشأة بيرل لتحويل الغاز إلى سوائل.

وأوضح الرئيس التنفيذي لشركة قطر للطاقة، سعد شريدة الكعبي، أن الهجمات عطلت خطين من أصل ١٤ خطًا لإنتاج الغاز الطبيعي المسال، ومنشأة واحدة من أصل اثنتين لتحويل الغاز إلى سوائل، وهو ما يعادل فقدان نحو ١٧٪ من القدرة التصديرية، أي ما يقارب ١٢,٨ مليون طن سنويًا، مع توقع استمرار التعطل بين ثلاث وخمس سنوات، وخسائر سنوية تقدر بنحو ٢٠ مليار دولار من الإيرادات المفقودة.

كما أصبح مشروع توسعة حقل الشمال، الذي كان يهدف إلى رفع الطاقة الإنتاجية من ٧٧ مليون طن سنويًا إلى ١٤٢ مليون طن بحلول عام ٢٠٣٠، يسير وفق جدول زمني جديد وافتراضات مختلفة بشأن مستوى المخاطر المقبول، في تكرار للتحديات التي واجهها الشيخ حمد في أوائل التسعينيات عندما أثارت حرب الكويت مخاوف المستثمرين والعملاء.

وحاولت قطر مرارًا التوسط للتوصل إلى اتفاق بين أطراف الحرب، لكن جميع هذه الجهود لم تحقق نتائج، فيما بقيت الدوحة نفسها هدفًا للهجمات.

لقد أصبحت العلاقة مع الولايات المتحدة، التي كانت تمثل الركيزة الأساسية لأمن قطر، السبب المباشر الذي جعلها عرضة للاستهداف. أما الأدوات التي صُممت لتعزيز هذا الأمن، مثل الحضور الدولي، والوساطة، واتساع شبكة العلاقات الخارجية، والروابط التي بناها جهاز قطر للاستثمار مع النخب العالمية، فلم تكن كافية لتعويض هذا الضعف.

كما أن تركز الجزء الأكبر من الاقتصاد الوطني في منطقة جغرافية صغيرة، لا يتجاوز قطرها نحو ستة أميال، بدا ميزة في أوقات الاستقرار، لكنه تحول في زمن الحرب إلى نقطة ضعف استراتيجية.

وهكذا، تعرضت الرؤية التي صاغها الشيخ حمد لأقسى اختبار في تاريخها. لقد انحنت تحت الضغط، وكادت تنكسر، لكنها نجت بصعوبة. أما ما إذا كانت هذه المقاربة ستظل قابلة للاستمرار في المستقبل، فهو سؤال مفتوح.

وفي الواقع، لا يتعلق الأمر بخطأ في السياسة بقدر ما يتعلق بمعضلة دائمة. فمن الصعب تصور ما الذي كان يمكن لأي حاكم قطري أن يفعله بصورة مختلفة.

فالغاز يوجد حيث يوجد، في حقل بحري مشترك مع إيران، ولا بد من تسييله على ذلك الساحل، كما أن دولة لا يتجاوز عدد مواطنيها نحو ٣٠٠ ألف نسمة لا تستطيع بناء قوة عسكرية كبيرة.

أما التحالف مع الولايات المتحدة، فعلى الرغم من أنه أصبح اليوم مصدرًا للمخاطر، فلا يوجد بديل عملي له. وفي المقابل، خرجت إيران من الحرب أكثر جرأة، كما انهار اثنان من أهم المحظورات الإقليمية: استهداف دول الخليج العربية بالصواريخ، وإغلاق مضيق هرمز. وهذه المحظورات، عندما تنهار، يصعب استعادتها.

ولم تكن هناك، في الأساس، استراتيجية قادرة على إبقاء قطر خارج هذه الحرب، بل كانت هناك فقط طرق مختلفة للتعامل مع الانخراط فيها.

وليس هذا أول اختبار تواجهه الدوحة؛ فقد مرت بحرب إيران والعراق في الثمانينيات، وبأزمة حدودية مع السعودية عام ١٩٩٢، ثم بالمقاطعة الخليجية التي كانت الأشد في تاريخ مجلس التعاون.

وفي كل مرة، اختارت قطر الحوار، وامتنعت عن التصعيد، وحافظت على انفتاحها على الجميع، وانتظرت حتى تتغير الظروف.

واليوم، وبعد ثلاثة عشر عامًا من توليه الحكم، يواجه الشيخ تميم أصعب اختبار لهذا النهج، مستندًا إلى الثقافة الاستراتيجية التي أرساها والده: ثقافة تقوم على المرونة، والصبر، والإصرار، والإيمان بأن أمن الدولة الصغيرة يتحقق عبر أن تكون ذات فائدة للجميع، ومن دون أن تصبح رهينة لأي طرف، وأن الحضور والتأثير في العالم يوفران حماية أكبر من الانكفاء والاختباء.

ديفيد روبرتس
معهد دول الخليج العربية فى واشنطن